حول اللغة و سوء التفاهم

الاستاذ
باقر جاسم محمد
جامعة بابل - كلية الآداب

١.في مشكلة المصطلح

لئن كان مصطلح "اللغة" (language) ذا طبيعة خلافية في الجوهر، فإن دراسة المفهوم الذي يمثله هذا المصطلح تثير مشكلات إضافية لأنها تحيل إلى مصطلحات ومفاهيم فرعية هي أيضاً ذات طبيعة خلافية. على أنه ينبغي التنويه بأن هنالك عدة مداخل في تعريف الظاهرة اللغوية؛ منها التعريف اللغوي والتعريف الاصطلاحي والتعريف الوظيفي والتعريف البنيوي و التعريف النفسي والتعريف الاجتماعي. ونظراً لجسامة مهمة تعريف اللغة فإن الباحث سيعرض لبعض التعريفات المعروفة. ولكنه يقرر هنا بأنه إنما يعتمد أساساً التعريف الوظيفي دون أن يغفل الإشارة إلى ما سواه من تعريفات إذا ما دعت الضرورة. وأنه سيترك لمتن البحث نفسه مهمة تحديد ما يقصده بالتعريف الوظيفي وما يتفرع عنه من المصطلحات.

لم يلق مصطلح اللغة اهتماماً كافياً من لدن اللغويين و النحاة العرب القدامى. إذ كانوا، في الغالب، يستخدمونه مرادفاً لمفهوم اللهجة. غير أن ابن جني (٣٢٢ – ٣٩٢ هجرية) يورد في كتابه " الخصائص" حداً للغة، أو تعريفاً لها، بالقول أنها " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم."[١] و هذا التعريف يتضمن ثلاث حقائق أو خصائص جوهرية من خصائص اللغة هي: الحقيقة الصوتية أو الكلامية للغة ، فاللغة 'أصوات' في جوهرها. والحقيقة الوظيفية للغة، لكون اللغة أصوات ' يعبر بها كل قوم عن أغراضهم'. وحقيقة أهمية الكلام والسياق في تفعيل هاتين الحقيقتين لأن التعبير عن الأغراض لا يكون إلا بكلام بعينه وفي سياق بعينه. كما نفهم من هذا التعريف أنه يتناول مفهوم اللغة من حيث هي ظاهرة عامة ومشتركة بين البشر؛ إذ ليس هو بالتعريف الذي يختص بلغة بعينها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ينصرف معنى اللغة في كثير من كتب النحاة إلى ثلاث معانٍ: الأول اللهجة مثل قولهم :"لغة طيء"، أو " لغة تميم"؛ و الثاني كلام مخصوص لا يقاس عليه كقولهم: لغة " أكلوني البراغيث"، أو لغة " جحر ضبٍ خربٍ"؛ و الثالث بمعنى المعجم كقولهم " الجزم، و معناه في اللغة كذا و كذا.". (٢)

ويذهب أدوارد سابير (١٨٨٤ – ١٩٣٩) إلى أن اللغة ظاهرة إنسانية على وجه التخصيص، وهي ليست مما ينتقل غريزياً إلى الإنسان، وإنما هي ظاهرة تكتسب بالتعلم وتقوم بنقل الأفكار والانفعالات والرغبات بوساطة نظام من الرموز الصوتية المنتجة إرادياً.(٣) وهذا التعريف يركز على أهم خصائص اللغة، و يجمع بين كل من الحدود:

١. الانثروبولوجي، كونها مقتصرة على بني البشر عبر تاريخهم الطويل. و هي تنقل أفكارهم و انفعالاتهم بين بعضهم بعضاً.

٢. النفسي ، كونها منتجة إرادياً و تعبر، في الأساس، عما تريده النفس البشرية

٣. البنيوي، كونها تشتمل على نظام من الرموز، أي أنها تنطوي على نسق system و بنية structure.

ويرى أميل بنفينست بأن اللغة تمثل أقصى حالات تحقق الملكة الترميزية عند الإنسان لأنها نظام رمزي خاص، منتظم على صعيدين. فهي من جهة واقعة فيزيائية، إذ أنها تستخدم الجهاز الصوتي لتظهر، و الجهاز السمعي لتدرك. ومن هذا الجانب المادي، فهي قابلة للملاحظة، والوصف والتسجيل، وهي من جهة أخرى بنية لا مادية وإيصال لمدلولات معوضة عن الأحداث والتجارب[والأشياء: الباحث] " بالإشارة إليها. فكلمة ‘سرير’ لا تصلح للنوم عليها، وكلمة ‘ماء’ لن تروي عطش أحد مطلقاً ، و عبارة " أحب روميو جوليت" لا يمكن التحقق من صحتها بأية وسيلة موثوقة سوى الاعتماد على ما ورد في النص. (٤)

أما فرديناند دي سوسور (١٨٥٧ – ١٩١٣) فإنه يميز بين ثلاثة معانٍ لمصطلح اللغة. الأول، وهو اللسان(langue)، الذي يشير إلى اللغة بوصفها نظاماً يشترك فيه المتحدثون في الجماعة اللسانية. أنه يختص بما يفرد لغة ما عما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سواها. ولذلك يمكن أن نستعمله في الإشارة إلى العربية أو الفرنسية أو الألمانية.. الخ. كما إنه مفهوم للغة بوصفها مؤسسة اجتماعية متعالية. والثاني هو مفهوم الكلام (parole)، ويشير إلى فعل الانجاز أو الأداء اللغوي الملموس من شخص بعينه و في موقف بعينه. والثالث، وهو الملكة اللغوية (langage)، فإنه يشير إلى الظاهرة اللغوية بوصفها قدرة إنسانية شاملة لكل الأفراد الأسوياء والطبيعيين من بني البشر.(٥)

ويقرر رومان ياكوبسن (١٨٩٦ – ١٩٨٢) أن اللغة يجب أن تدرس في تنوع وظائفها بأكمله. ثم يجمل العناصر المكونة لكل عملية اتصال لسانية بالآتي: ١. المرسل، ٢.المرسل إليه، ٣. السياق، ٤. الرسالة، ٥. الاتصال، ٦. الشفرة.. و يكمل نظريته هذه بإسناد ست وظائف للعملية الاتصالية . و هذه الوظائف هي: ١. الوظيفة الانفعالية، ٢.الوظيفة المرجعية، ٣. الوظيفة الشعرية، ٤. الوظيفة الإيعازية، ٥. الوظيفة الواصفة أو الوصفية، ٦. والوظيفة القولية.(٦) وإذ يتبنى الباحث الفرنسي روبول وجهة نظر ياكوبسن في وظائف اللغة والعوامل المكونة لكل عملية اتصال، فإنه يقوم بعملية تغيير في تسمية مكونات عملية الاتصال، و يضيف إلى نظرية ياكوبسن ما يسميه القيمة.(٧) وهي ما يمكن أن يكون الهدف من كل وظيفة أو أساسها. وكما هو موضح في الشكل الآتي:

	قطب التواصل	الوظيفة	القيمة
	المرجع Refernt	مرجعية	الحقيقة
	المرسل Addresser	تعبيرية	الصدق
	المرسل إليه Addressee	إيعازية	المشروعية
	الرسالة Message	شعرية	الجمال
	الاتصالCommunication	قولية	المجاملة
	القواعـــــــد	فوق قولية	موافق للقواعد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونلاحظ هنا أن ما أسنده روبول من قيمة لكل وظيفة هو مما يقع في نطاق المسائل الذاتية أو الخلافية مثل الحقيقة والصدق و المشروعية و الجمال. غير أن فهم هذه القيم في ضوء التصور الكلي يمكن أن يرتقي بها إلى درجة عالية الموضوعية كما سيتضح لاحقاً.

أما الباحث الفرنسي جورج مونان فإنه يرى أن كل النظريات اللسانية " توافق على أن البنيات اللسانية وسيلة غايتها هي تحقيق التواصل اللغوي".(٨) و هذا يعني أن الفهم من خلال التواصل اللغوي، أو التفاهم، و في حالة الفشل في التواصل تكون النتيجة سوء التفاهم، هو من أهم المشكلات تعرض لم يتصدى لدراسة مشكلة المعنى في اللغة، إن لم تكن هي المشكلة الأهم قديماً و حديثاً. و هي المشكلة التي سنكرس لها هذه البحث.

٢. في مشكلة اللغة و سوء التفاهم

إذن فإن اللغة أداتنا الأهم والأكثر فاعلية في التواصل مع الآخرين،وذلك بالتعبير عمّا يدور في عقولنا من أفكار وما يعتمل في دواخلنا من انفعالات وتأملات ورغبات أيضاً، وهي أيضاً،حسبما يرى بعض الباحثين،من أهم مصادر اختلافنا وصراعنا الأبديين بوصفنا كائنات اجتماعية.فمنذ أن ازدهرت الفلسفة السوفسطائية في اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد؛واكتشفت إمكانية اللعب بالكلام لأغراض متضاربة ودونما اعتبار للواقع الموضوعي وللحقيقة،صار واضحاً أن اللغة من أخطر المقتنيات الإنسانية لكون مستخدميها من البشر قد ينحرفون بها،وهم غالباً ما يفعلون ذلك،عمّا يفترض أن تؤديه من وظائف تسهم في إزالة سوء التفاهم و تحقيق التواصل بين الناس. والتواصل هنا مشتق على صيغة التفاعل التي تعبر بصيغتها وبمعناها الذي تفيده عما ينبغي أن تنجزه اللغة أعني التحاور، وهو الهدف والوظيفة المنشودة الأكثر أهمية بين أهداف استعمال اللغة.

إن النتيجة النهائية لكون اللغة نظاماً للتواصل ليس محمياً من سوء الاستخدام وخضوعها بالكامل لإرادة البشر هي فشل التواصل وتفشي سوء التفاهم وقيام

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحواجز بين الناس في الثقافة الواحدة ذات اللغة الواحدة ناهيك عن اللغات المختلفة والثقافات المختلفة.ولقد حاول أفلاطون و من بعده أرسطو،في مسعى منهما لإعادة الاعتبار لعملية التواصل بوساطة اللغة أن يضعا أسساً للاستعمال السليم للغة من خلال علم المنطق وما يتضمنه من حدود ومقدمات يمكن أن تسهم في توضيح صدق عبارة ما من عدمه.ولكن المنطق الأرسطي لم يسلم من النقد لأنه كان منطقاً شكلياً قد ينتج تطبيقه العملي عبارات سليمة منطقياً ولكنها فاسدة الدلالة وكاذبة.والمنطق،فضلاً عن ذلك،كان ممارسة فكرية ذات طابع تقني،إذ لم يكتب له الانتشار بين عامة الناس من مستخدمي اللغة؛فظل محصوراً في نطاق ضيق وبين النخبة الفكرية المهتمة بالفكر والفلسفة.أعني إذا كان المنطق أداة نافعة للتثبت من صدق العبارات فهو متاح فقط للنخبة من الفلاسفة والمفكرين والمثقفين في سياق الجدل الفكري والفلسفي بينهم.ولكـــن الحقيقة الماثلة أمامنا هي أن التواصل باستعمال اللغة يجري بين أفراد المجتمع وطبقاته الاجتماعية كافة.وهؤلاء هم من يقررون،وفقاً لخلفياتهم الاجتماعية والسياسية والأيديولوجية وأغراضهم ودوافعهم والشخصية الذاتية والنفسية،كيف يستعملون اللغة ولماذا.أمّا الفلاسفة والمفكرون الذين يمثلون نسبة قليلة العدد داخل المجتمع فهم ذوو تأثيرٍ ضئيلٍ في هذا الشأن؛ فضلاً عن أن الفلاسفة والمفكرين أنفسهم قد لا ينجحون،وهذا ما يحصل غالباً،في تحقيق التواصل فيما بينهم.إذ يشير باحث في الفلسفة الحديثة إلى أنه" يكفي أن نستعرض التصورات المختلفة للفلسفة التي يعبر عنها المفكرون المعاصرون من البلدان المختلفة، لكي نقتنع بأن الغموض لصيق بطبيعة الفلسفة نفسها".[٩] وهذا يعني أن أصل الداء،أعني الغموض وما يولده من التباس وسوء فهم، كامن في الفكر معبراً عنه بالفلسفة التي هي من أهم مظاهر الفكر.

٣. في طبيعة المشكلة

لقد قطع فهم الإنسان لطبيعة اللغة و وظائفها أشواطاً بعيدة منذ أن عرف السوفسطائيون ، نشوة اكتشاف قوة التأثير للكلام على الجماهير،[١٠]. فقد أسهمت تأملات و بحوث و دراسات فلاسفة و لسانيين، مثل أفلاطون و أرسطو و

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفراهيدي و سيبويه و إبن جني و سوسور و سابير و بلومفيلد و تشومسكي و هاليداي و كثير سواهم، في تطوير تصورات الإنسان حول أثمن مقتنياته، أعني اللغة. فأصبح لدينا مدارس لسانية مختلفة. و أنتجت هذه المدارس علوما ً متخصصة تدرس مختلف مستويات بنية اللغة من صوتية و صرفية و تركيبية و دلالية، فضلا ً عن أنماط اللسانيات المختلفة من نفسية و اجتماعية و نظرية و تاريخية. كما تكونت لدينا نظريات في اللغة مختلفة في المنطلقات و متباينة في النتائج في أغلب الأحيان. بيد أن هذا التقدم في فهم اللغة لم يصاحبه تقدم موازٍ في تحسين فرص استعمال اللغة الناجح في تحقيق التواصل الكفء، أو تبديد احتمالات سوء التواصل أو سوء الفهم الناجمة من سوء استخدام اللغة (و عذرا ً لاستعمال بعض الكلمات المعيارية). فأين تكمن إذن المصادر و الأسباب الحقيقية في مثل هذا الفشل؟ من الناحية المنهجية، يتفرع هذا السؤال إلى الأسئلة الآتية:

١. هل يكمن الفشل في طبيعة اللغة نفسها و ذلك لكونها أداة قاصرة عن التعبير الدقيق عن الفكر؟

٢. أم أنه يكمن في الفكر نفسه لأنه لم يعد فكرا ً ذا أسس عقلانية دقيقة و واضحة و على شيء من الثبات؟

٣. أم أنه يكمن في المستعمل الفرد للغة كونه لا يتورع عن استخدامها استخداما ً مفرطا ً في الذاتية للتعبير عمّا يريد دونما اعتبار للحقيقة الموضوعية؟

٤. أم أنه يكمن في الصراعات الاجتماعية التي ما انفكت تؤثر في اللغة حين تدفع الناس إلى استعمالها لأغراض أيديولوجية تجعل الخطاب اللغوي وثيق الصلة بالمواقف المستمدة من الأيديولوجيا و ليس بالحقائق الموضوعية؟

٥. أم أنه يكمن في عدم وجود أسس اجتماعية ، من أعراف أو تقاليد أو قواعد أخلاقية أو قانونية، تحول دون سوء استعمال اللغة، أو حتى تخفف منه؟

قد تتداخل الإجابة على هذه الأسئلة نظرا ً للترابط الوثيق بين أسباب ظاهرة فشل التواصل و سوء التفاهم و مظاهرهما المختلفة. ففي الإجابة على السؤالين الأول و الثاني، هناك اتجاهان، الأول منهما يوجه اللوم للغة نفسها في فشل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التواصل بين الناس. و الثاني يضع اللوم على الجماعة اللسانية و نظامها الفكري و السياسي. فقد ذهب فلاسفة التحليل اللغوي و مدرسة كامبردج الفلسفية بين الحربين العالميتين الأولى و الثانية إلى التوكيد' بأن اللغة هي المشكلة الرئيسية في الفلسفة'[١١] . كما ذهب مفكرون آخرون إلى ' أن ما تعانيه الفلسفة و اللاهوت و الأدب و العلوم الاجتماعية و التاريخ من ارتباك و تشوش و إشكلات إنما يعود إلى مرض اللغة و فشلها ***و إن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على ارتباكنا في فهم أنفسنا و فهم الواقع الإنساني*** [التوكيد من كاتب المقالة]'. [١٢] ولعل التناقض واضح في هذا النص. إذ أنه بعد أن عدَّ اللغة فاشلة و مريضة، عاد ليقرر بأن دلالة هذا الفشل و المرض في اللغة تعود إلى ' ارتباكنا في فهم أنفسنا و فهم الواقع الإنساني' و هذا يعني بالضرورة أن أمراض اللغة و فشلها إنما هو انعكاس لتبلبل أفكارنا و لعجزنا نحن عن فهم أنفسنا. و الحق أن العيب أو الفشل أو المرض أو سمه ما شئت ليس في اللغة. فهي أداة طيعة بأيدي مستعمليها. و هي في ذلك مثل كل أداة ؛ فالمستعمل هو من يقرر كيف و متى و لأي الأغراض يستعملها. و اللغة، من حيث هي، تصلح لأن تكون وسيلة ممتازة للتواصل في شتى الحقول المعرفية بالقدر نفسه الذي تصلح فيه للتشويش و الإرباك و خلق الاشكالات في وجه أية محاولة للتواصل و التفاهم.

من هذا نستنتج بأن من يجب أن ينسب إليه الفشل و الإرباك و الاشكالات هم مستعملو اللغة أفراداً و جماعات. و ليست اللغة التي هي ليست بالمريضة و لا بالسليمة؛ و إنما هي تؤدي الوظيفة التي يمليها عليها مستعملوها فحسب، سواء أكانت تلك الوظيفة سلبية أم إيجابية. فإذا شاء المرء أن يلوثها بالأيديولوجيا المغلقة على ذاتها و بالتدليس ، و أن يجعل منها منطلقاً لرسم صورة لفظية مغرقة في الذاتية عن الواقع، استجابت لـــه و أعطته من طاقاتها التعبيرية ما يجعلُ الحقَ باطلاً، و القبحَ جمالاً و النورَ ظلاماً. و إذا شاء أن يحرص على أن تكون واضحة و دقيقة في تصويرها للواقع وفقاً لمنهج يستبعد، قدر الإمكان، العناصر الذاتية و يعكس أكبر قدر ممكن من مكونات الواقع بشكل موضوعي، لن تبخل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عليه اللغة بما لديها من طاقات تعبيرية في معاونته في هذا الأمر. إذن على قدر كفاءة مستعمل اللغة الذي يفهم أسرارها و طاقاتها و إخلاصه لما يريده منها، تكون جسامة المسؤولية الأخلاقية المترتبة على العمل الذي تنجزه اللغة سلباً أو إيجاباً. و من الواضح أن هذه المسؤولية الأخلاقية لا يمكن أن تـُعزى إلى اللغة نفسها لأنها حاضنة لكل القيم الاجتماعية سواء أكانت أخلاقية أم غير أخلاقية. إذن يمكننا أن نعزو المسؤولية الأخلاقية إلى مستعملي اللغة أنفسهم. و بذلك يجوز لنا أن نرجع الفشل في التواصل و التفاهم إلى سوء استعمالنا للغة و ليس إلى مرض متأصل فيها.

وتنجدنا سوسيولوجيا المعرفة في تشخيص السبب الحقيقي في الزعم الذي يعزو الفشل إلى اللغة أعلاه. فإذا كان المبدأ الأساسي في سوسيولوجيا المعرفة هو أن ' كل معرفة، ما عدا العلوم الطبيعية "تتأثر بموقف القائم بالمعرفة"' أي أنها نسبية من الناحية الاجتماعية' كما يقول مانهايم، (١٣) جاز لنا البحث في أسباب هذا الموقف المتشائم من اللغة في سياق الظرف التاريخي الذي أنتجه. فقد ازدهرت البحوث التي تؤكد على فشل اللغة ومرضها في الفترة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية. وكان ذلك تحديداً عند صعود النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا ودخول أوروبا في عمق الدوامة الأيديولوجية التي بدأت مع ثورة أكتوبر١٩١٧. وقد تفاقمت تلك الدوامة واشتدت بعد الحرب العالمية الأولى لتنتهي بكارثة الحرب العالمية الثانية. وإذا ما تذكرنا بأن الخطاب اللغوي هو من أهم الميادين التي يتجلى فيها فعل التشويش الفكري الفاشي و الشمولي، و هذا يصدق على حالة الخطاب اللغوي في ألمانيا و إيطاليا و الاتحاد السوفيتي السابق و دول أخرى كثيرة، و إذا ما تذكرنا أن بعض المفكرين قد تورطوا في زيادة بشاعة فعل التشويش الفكري و الأيديولوجي هذا، كما هو حال مارتن هيدجر في ألمانيا النازية، و برونو ميجيلوريني في إيطاليا الفاشية، حُقَّ لنا أن نقبل ما ذهب إليه هابرماس الذي يرى أن" مما لا شك فيه أن فلاسفة العشرينيات و أوائل الثلاثينيات يدخلون حكماً في سياق الفكر الذي سبق النازية و مهد لها. وليس بإمكانهم أن يتظاهروا بعدم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاهتمام بما حصل بعد ذلك. وبعد ١٩٤٥، على كل حال، لم يعد باستطاعة هؤلاء الذين اتخذوا موقفاً يدعى الحياد، إظهار البراءة."[١٤] واستناداً إلى مثل هذه الخلفية الفكرية والسياسية والاجتماعية الملتبسة والمحبـــطة، يمكن لنا أن نصف ذلك الزعم بأنه تعبير عن اليأس من اللوغوس ممثلا ً في اللغة. وإذا ما علمنا بأن اللوغوس كان واحداً من أهم العناصر في التكوين الثقافي للعقل الغربي، و هو المكون الذي يفترض أنه يفصح ‘عن التماثل الأساسي بين عمل الكلام وعمل الفكر ’كما يقول كاسيرر[١٥] ، نستطيع أن نستنتج بأن الزعم القائل بمرض اللغة و فشلها قد جاء تعبيرا ً عن لحظة تحول حاسمة من اليقين المطلق إلى الشك العميق في صحة ذلك العنصر الأساسي في الثقافة و العقل الغربيين، أعني اللوغوس.

ويمكن أن نلاحظ بأن التركيز على مشكلات فشل التواصل وعلاقتها بطبيعة الخطاب اللغوي يزداد حدة مع ازدياد حدة الصراعات الأيديولوجية لسببين الأول هو أن الإنسان، أعني مستعمل اللغة، كائن أيديولوجي، و الثاني هو أن الصراعات الأيديولوجية تزيد من فاعلية الجانب الذاتي وتقلل من فاعلية الجاني الموضوعي من شخصية الإنسان. إن الصراعات الأيديولوجية ما انفكت تتصاعد بعد أن انتقل مركزها الأساسي من أوروبا (الشيوعية ضد الرأسمالية بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ثم الليبرالية والشيوعية ضد الفاشية أثناء الحرب العالمية الثانية ثم عودة إلى الشيوعية ضد الرأسمالية بعدها، وأخيراً بين أمريكا وكل من يرفضون هيمنتها في الوقت الراهن) إلى العالم جميعه بعد انهيار المجموعة الاشتراكية. فقد تشكلت بؤر جديدة متعددة للصراع وذلك لمواجهة أخطار القطبية الواحدة وما تفرضه العولمة من تغييب للهوية و إلحاق قسري بالآخر. كما يمكننا القول بأن الصراعات صارت تجري بين الغرب الرأسمالي بوصفه مركزاً وأغلب دول العالم بوصفها محيطاً. وبين طرف من الغرب هو الولايات المتحدة تحديداً ودول معينة تتبنى مناهج وسياسات مناهضة للعولمة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. وكما تعددت جغرافيا الصراع واختلفت كذلك تعددت أسبابه و اختلفت: فكانت هناك صراعات سياسية و اقتصادية و دينية و ثقافية تحركها جميعا ً الرغبة في الهيمنة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

و ضمان الحصول على الامتيازات. وهذا ما يجعل أزمة فشل التواصل وتفاقم سوء التفاهم بين البشر تصل حدودها القصوى لأنها غدت ظاهرة كونية دون أن تفقد صفتها المحلية أو الداخلية. فهي إذن تتجسد بالاختلاف بين أبناء الثقافة الواحدة من جهة؛ فنجد تناشزاً في الخطاب السياسي والأيديولوجي في البلد الواحد بين ما تقول به القوى القابضة على نحو مؤبد على السلطة والقوى التي تنازعها ذلك التأبيد من جهة أخرى، و بين ما تقول به قوى توصف بأنها تقدمية أو علمانية وما تقول به قوى توصف بأنها محافظة و دينية يصل إلى حد القطيعة. ويمثل ذلك تعبيراً عن عمق الصراع وتجذره وتحول مظاهره في الخطاب اللغوي السياسية إلى نوع شامل من التخندق اللغوي المستمد من موقف أيديولوجي والمعبر عن القطيعة في التواصل وليس عن الرغبة فيه. وكذلك تتجسد الأزمة في ما نشهده من مظاهر سوء التفاهم وفشل التواصل على مستوى العالم جميعه بفعل الاختلافات الثقافية والحضارية والاقتصادية والسياسية، وهي اختلافات يمكن أن تفسر أيديولوجياً، بمعنى أنها تعبر عن المواقف الفكرية المختلفة. وهذا ما يضفي أهمية متزايدة على دراسة تأثير فشل التواصل كما يتجسد على صعيد دور اللغة نفسها في مثل هذه الأزمة.

٤. في إمكان أن تسهم اللسانيات في تبديد سوء التفاهم

لقد حفزت المشكلات التي أثارتها الآراء المشككة بصحة اللغة و قدرتها على التعبير، والقائلة بأنها سبب جوهري من أسباب الارتباك و التشوش في العلوم الإنسانية عامة، نقول حفزت تلك المشكلات الباحثين إلى بذل جهود علمية مكثفة مكرسة للبحث والتقصي في كثير من جوانب اللغة المهمة في حقول فلسفة اللغة و اللسانيات الاجتماعية والتطبيقية و مناهج تحليل الخطاب. و قد أدى هذا بدوره إلى تطورات مهمة للغاية جعلتنا على دراية أعمق و فهم أدق لطبيعة اللغة. و تجلى ذلك في جهود كثير من المفكرين والفلاسفة و الباحثين كما في أعمال مدرسة كامبردج الفلسفية، و أعمال المدرسة الوظيفية (مدرسة براغ) ودراسات أوستن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وسيرل. و عمل تشومسكي المهم في اللسانيات التحويلية التوليدية. وكذلك الأعمال المؤسِسة لما يعرف باللسانيات التداوليةpragmatics. غير أن ذلك كله لم يؤد إلا إلى تأثير محدود في التقليل من الارتباك والتشوش في الحقول المعرفية المشار إليها أعلاه، كما لم يؤد ِ إلى تحسن ملحوظ في سبل التواصل و إزالة سوء التفاهم. و لم يستطع صد المغيرين على المنجم اللغوي لأسباب أيديولوجية محضة. فاللغة ملكية اجتماعية مشاعة لا يمكن لأية سلطة أن تمنع الآخرين من استعمالها أو استغلالها بالكيفية التي يريدون. وأية محاولة لمنع الآخرين من استخدامها أو تحديد الكيفية التي يجب اتباعها في كلامهم المنطوق أو المكتوب إنما تقع في باب الحجر على حرية التعبير التي تتضمن بالضرورة حرية التفكير. وبذلك فهي تـُعـَبـِّرُ بالضرورة عن إرهاب فكري صريح. كما أنها منزلق خطير قد يؤدي الوقوع فيه إلى موقف فاشي في الفكر و السياسة. وهو ما يجب أن يتجنبه كل مسعى لتحسين سبل التواصل الإنساني.(١٦)

وتحظى العلاقة بين الفرد بوصفه مستعملا ً للغة و اللغة ذاتها باهتمام المفكرين و الفلاسفة و الباحثين الشديد. و هم حين يتحدثون عن مفاهيمهم للغة يزيدون الأمر تعقيدا ً. إذ يذهب لودفيج فتجنشتاين، وهو أحد أهم الباحثين في فلسفة اللغة، إلى حد القول ‘إن حدود لغتي هي حدود عالمي’(١٧) . و هو ما قد يفهم على أنه نوع من النسبية اللغوية Linguistic Relativity. أي أنها نسبية ليست فقط بين اللغات المختلفة كما ذهب إلى ذلك سابير و ورف في فرضيتهما المشهورة التي تقيم توازيا ً بين اللسان و الفكر إذ تؤكد‘ بأننا نحلل الطبيعة على وفق خطوط وضعتها لغاتنا، أو ألسنتنا، الأصلية ... بوساطة أنظمة لسانية في عقولنا’(١٨) ، بل هي أيضا ً نسبية بين الأفراد في اللغة الواحدة أنفسهم. أي أنها ليست ذات جوهر عابر للغات و المجتمعات و الثقافات فحسب و إنما هي تشمل، و تحدث فعليا ً، بين أفراد المجتمع الواحد. و هو ما سيقلص من طاقة الإمكانات التواصلية للغة إلى أدنى حد ممكن. فما دام الناس يختلفون في قدراتهم اللغوية، و ما دامت حدود اللغة الخاصة بكل فرد تحدد عالمه الخاص، فإن كل مستعمل للغة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سيعبر عن عالم خاص به. و هو عالم يختلف بهذه الدرجة أو تلك عن عالم الآخرين. بمعنى أننا سنتكلم عن عوالم مختلفة لا عالم واحد. و لعل ذلك هو أحد أهم مصادر سوء التفاهم و فشل التواصل من الجانبين الوجودي و الاجتماعي. و نعتقد بأن أي علاج تربوي أو علمي مستنبط من طبيعة هذا العامل المهم سيكون ضروريا ً و لكنه يبقى محدود الأثر لنظرا ً لتعدد صور فاعلية عامل اختلاف العوالم المعبر عنها بوساطة اللغة و تعقيدها و لكونه عاملا ً ذا وجود ثابت ملازم للكينونة الاجتماعية و اللسانية.

ولعل البحث في أسباب المشكلة سيكون أكثر جدوى إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار الاضطراب والتشوش الحاصلين في العقل والعلم و أصولهما المعرفية. إذ مع ملاحظة أن التقدم العلمي أستمر بوتائر عالية في القرن العشرين، إلا أن الأسس المعرفية للعلم في صيغته التي عرفتها البشرية منذ عصر النهضة والثورة الصناعية قد اهتزت كثيراً. ولذلك يستحق القرن العشرين أن يوصف بأنه قرن انكفاء العقل والنزعة العلمية التقليديين. فلقد انتهى عصر الفكر القطعي دونما رجعة. ذلك الفكر الذي يصفه وندهام لويس بالفكر المكاني أو السكوني، ليحل مكانه فكر زماني حركي مرتبط بالصيرورة والتحول. وحلت نزعة نسبية المعرفة محل المقولات المبنية على المطلقات. ويوضح ذلك ميشال سارتو قائلاً: ' ما تؤسسه فترة معرفية معينة هو بنيتها اللاشعورية ... حينئذٍ تهتز الأرضية التحتية لينهار كل ما على السطح من بنيات وأنساق وأنظمة العبارة والكلام لتترك المجال لميلاد " نسق إمكاني " جديد ... . مثلما تنهار الحقيقة والتاريخ ليصبحا قطعاً مجزأة ودلالات محددة وتصورات محلية، ينهار العقل ليرتد إلى مجرد باعث تنظيمي خاص بفترة معرفية معينة. و ينهار أيضا ً اليقين ليعبر عن " قلق اللغة ". (١٩) ولسوف يصح هذا التصور إذا ما قلبناه رأساً على عقب وقلنا إن قلق اللغة يعبر عن قلق الفكر نفسه. وبهذا لن تكون التهمة موجهة للغة بقدر ما هي موجهة للأنساق الفكرية والسياقات الاجتماعية المنظمة لعمل اللغة. وهي الأنساق التي ليست من صميم مفهوم اللغة وإن كانت ترتبط بها عضوياً. إذ كما نجحت اللغة،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في مراحل تاريخية معينة، في التعبير عن(اليقين) و(الحقيقة) وعن (أنساق فكرية مستقرة) لأن ما عبرت عنه كان موجوداً وقائماً في واقع الممارسة الاجتماعية والفكرية والسياسية في حينه، نجحت أيضاً في التعبير عن الاضطراب والتشوش وانعدام اليقين الماثل في واقع الممارسة الاجتماعية والفكرية الراهنة. وكان ذلك بسبب التحول من العقلية المكانية القديمة إلى العقلية الزمانية الحديثة التي"... استغنت عن الكينونة، وتركت الناس يهيمون بلا علامات طريق يسترشدون بها،... وعلى نهاية القرن التاسع عشر، أصبحت الصيرورة مقولة كبرى بالفعل في الفكر، بالمعنى المتدهور و المعنى الخلاق معا ."[٢٠]

و لعل أهم مصادر التشوش هو عدم وضوح حدود المصطلحات اللسانية. فمثلاً نجد أن مصطلح المتكلم – السامع المثالي، و هو في الإنجليزية the typical speaker-listener ،في اللسانيات التوليدية، مثلاً، هو مصطلح غاية في التجريد و العمومية لحالة شديدة الذاتية و الخصوصية حتى ليمكن القول أنه نوع من الأسطورة في حقل العلم. و هو إذ يشير إلى القدرة في استعمال اللغة في التعبير و الفهم معاً، فإنه يعجز عن وضع عملية التواصل في سياقها الاجتماعي و التاريخي. و السبب هو أن النموذج المتبنى، كما يقول روي هاريس يقترح في الأساس صحة وشرعية ثلاثاً من عمليات التجريد:

(i) إنه مجرد من هويتي كل من المتكلم و السامع،
(ii) و هو مجرد من السياق الاجتماعي المحدد لفعل الكلام،
(iii) وهو مجرد من مضمون ما يقال. (٢١)

و هكذا يغدو المصطلح الذي كان المرجو منه أن يقربنا من فهم بعضنا بعضاً أداة تجريدية تترفع عن أهم ما ينتظره منها مستعملو اللغة، أعني الإسهام في تدعيم فرص التواصل و تدعيم سبل التفاهم بدلاً من تبديدها بزعم أنها تقلل من المكانة العلمية للبحث اللساني الذي نرى أن من أولى مهماته أن يدرس اللغة في سياقاتها الاجتماعية المحددة و ليس في فراغ نظري محض. فنحن لا نستطيع أن نضع علامة مساواة بين استعمال أدونيس للغة بوصفه شاعراً على دراية عميقة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بأسرار العربية و استعمال قائد الطائرة للغة حين يقدم تقريراً لبرج المراقبة أثناء القيادة. فأدونيس شاعراً يستخدم اللغة لتنقل حمولة لسانية ليست بالمعرفية تماماً، و إنما هي حمولة مفعمة بأقصى الحالات الذاتية و الميتافيزيقية تألقاً. في حين يستخدم قائد الطائرة أعلى درجات الدقة في اللغة عندما يتصل ببرج المراقبة. و كل منهما ينجز وظيفة لغوية ناجحة على وفق السياق و الغرض أو الوظيفة الخاصين بكل منهما. و لكن المسألة لا تـــنتهي عند هذا الحد. فإذا كنـــَّا على يقين بأن رسالة قائد الطائرة ستـــُفهم، و يجب أن تفهم، على الوجه الذي أراده منشؤها، فإن الوضع مختلف تماماً بالنسبة لرسالة أدونيس الشعرية لأننا نستطيع الجزم بأن رسالة أدونيس ستتـــُفهم من قرائه على صور متعددة و متباينة. و هي صور ليس بالإمكان، نظرياً، حصرها. لأننا نعرف أن ما أراده أدونيس ليس قفل باب التأويل لنصه الشعري، بل هو يريد أن يبدع كل قارئ فهمه الخاص للنص الشعري.و هذا الموقف يعبر عن قناعة بأن تعدد القراءات و التأويلات، نظرياً و عملياً، سيثري النص بمعانٍ قد لا تكون خطرت على بال الشاعر أصلاً. و إذا كان هذان المثالان يتعلقان بنوعين مختلفين من الخطاب و بمرسلين هما شخصان يتفاوتان في القدرات اللغوية و في الغرض من استعمال اللغة، أي في طبيعة الوظيفة اللسانية المنجزة، فإن الشعراء أنفسهم يختلفون في اللغة التي يستخدمونها في خطاب بعينه و لوصف تجربة معينة مثل تجربة الحب. فلغة عمر بن أبي ربيعة الشعرية، في هذا السياق، أكثر احتفاءً و تركيزاً على ما هو حسي من لغة صاحب بثينة التي لا نكاد نعثر فيها على شيء من ذلك لأنها تنحو إلى التعبير عن حب مثالي. والواقع أن المصطلحات والمفاهيم في العلوم والفنون والحقول المعرفية جمعياً قد غدت أقل موثوقية و أكثر تعبيراً عن التعددية في الدلالة، فصارت توصف بأنها خلافية سواء أكان ذلك المصطلح أو المفهوم أدبياً مثل مفهوم الشعر نفسه أو ثقافياً مثل مفاهيم اللغة و الثقافة و الفكر أو سياسياً مثل مفاهيم الحرية و الديمقراطية و حقوق الإنسان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا ينفرد الشعراء عن غيرهم بالنسبة لتفاوت قدراتهم في الفهم و التعبير باستعمال اللغة، أو حتى بالنسبة لما يصفه البعض بسوء استخدامهم للغة أو سوء فهمها. ذلك التفاوت الذي قد يراه البعض نتيجة لطبيعة الخطاب الشعري نفسه مما يؤدي إلى وجود ظاهرة الغموض في الشعر. بينما يرجع آخرون مسألة الغموض في الشعر إمَّـــا إلى إفراط الشعراء في التركيز على ذواتهم أو لعدم تمكنهم من أدواتهم اللغوية. و لكن يشاركهم باحثون لسانيون في علوم اللغة في هذا الأمر. ففي حقل اللسانيات نجد أن عالمين من أكبر علماء اللسانيات في القرن العشرين و هما الأمريكيان ليونارد بلومفيلد(١٨٨٧-١٩٤٩) و نعوم تشومسكي(ولد في ١٩٢٨) يقدمان قراءتين لنص كتاب **محاضرات في اللسانيات العامة** لفرديناند دي سوسور. وكل قراءة من القراءتين اتخذت شكل تقويم متعدد المراحل وعبر سنوات عديدة للكتاب نفسه. و إذا كان من المتوقع، و إن كان ذلك نادراً، في القراءة المنهجية العلمية التي يجريها مختصون في حقل علمي هو اللسانيات أن تقع هذه القراءة في التناقض أو إساءة القراءة و الفهم، فإن مواقف بلومفيلد وتشومسكي من آراء سوسور قد ذهبت إلى أبعد من ذلك. فقد تباينت آراءهما بين الإطراء و التبني في مراحل معينة، والنقد والنبذ و الهجوم في مراحل أخرى! و الغريب في الأمر أن تتضمن قراءتاهما شيئاً من التناقض و سوء الفهم! و هو تناقض قد يقع فيه أشخاص أقل كفاءة و خبرة في استخدام اللغة من هذين العلمين البارزين في حقل اللسانيات. و يذهب باحث معاصر إلى أن ذلك التناقض و سوء الفهم في قراءتي بلومفيلد وتشومسكي كان نتيجة لدوافع أيديولوجية و عوامل ذاتية و موضوعية تخص تطور الموقف النظري لكل من بلومفيلد و تشومسكي من اللغة؛ فضلاً عن أنه يؤكد على أن إساءة القراءة خصيصة متأصلة في الخطاب اللغوي نفسه.[٢٢] و على حال، يمكننا القول بأننا لا نعتقد أنه يمكن لوم الفرد أو تأنيبه

إذا ما نحى في استخدامه للغة منحى ذاتياً، ولكن ينبغي دراسة الأسباب العلمية و السياقية التي قد تكون دافعاً وراء موقفه الذاتي هذا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في الإجابة على السؤال الرابع نقول: تـُعـَدُّ الصراعات بين مكونات المجتمعات من أهم دوافع اسعي الأفراد والجماعات لامتلاك القدرة على استعمال اللغة على نحو يعبر عن مصالح خاصة. إذ ‘قبل أن تصبح البلاغة [والبلاغة أهم مظاهر الاستعمال الجيد والفعال في التعبير عن الأفكار]" تقنية محظوظة تسمح للطبقات المسيطرة بأن تتأكد من امتلاكها للكلام" حسب تعبير بارت، وقبل أن يكون لها معلموها وفئات تدافع عنها، ولدت البلاغة في القرن الخامس قبل الميلاد من محاكمات حول ملكية الأرض. ...، وهكذا بدأ الغربي يتفنن في الكلام ويفكر في اللغة لا حباً بالتفنن أو في المعرفة لذاتها بل دفاعاً عن ممتلكاته’[٢٣].وهذا الكلام يفصح عن واحد من أهم منابع التشويش على إمكانية التواصل بين البشر. فقد ارتبط نشوء علم البلاغة في الحضارة اليونانية القديمة بالصراعات التي قد تكون طبقية أو سياسية أو فكرية أو عرقية أو دينية أو طائفية. وهي في كل الأحوال تعبر عن نفسها في أطروحات وصيغ و مقولات أيديولوجية ثابتة. وتهيئ نفسها للدفاع عن تلك الأطروحات والصيغ إزاء أية أطروحات أخرى عبر الاستثمار الأقصى لطاقة اللغة التعبيرية. ودونما التفات إلى مسألة كون ما يقال يعبر عن حقائق أو أوهام وأكاذيب. والواقع أن للأيديولوجيا منطقاً خاصاً لا ينتمي بالضرورة إلى أبواب المنطق الصوري من استدلال وقياس واستقراء كما يقول محمد سبيلا.لأن ‘العقل الأيديولوجي–إذا جاز التعبير– لا يرتبط بنظام معرفي واحد ولا بآليات واحدة بل يلجأ إلى كل ما يخدم غرضه من استدلال وبلاغة وإيحاء(...) إنه يوظف ما يناسب قضيته ويخدم قناعاته: يوظف البيان (التشبيه والاستعارة والتمثيل والتورية والقياس) ويوظف العرفان(المماثلة...) [كذلك يوظف الميثولوجيا والدين والحجج الغيبية. الكاتب] وكما يوظف الاستقراء والاستنتاج’ وكل ذلك لأن‘ هدفه إقناع الغير. ومن خلال سعيه لإقناع الغير يزداد هو نفسه اقتناعاً وإيماناً بقضيته.’[٢٤] وهذا يعني أن عبء اللغة سيكون ثقيلاً للغاية لأنها تخدم، مرغمة، أهدافاً متباينة بل متناقضة أحياناً. ومع ذلك فإنها ستجد من يقبل منها ما تقدمه لـــه من وصفات فكرية جاهزة لأن‘ الميل الطبيعي للإنسان هو أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يعرف ويستعمل معارفه. وأن يعتقد وليس أن يفكر. والفارق كبير بين المعرفة والاعتقاد والتفكير.'[٢٥]وهكذا تتحول اللغة من وسيلة لتجسيد الفكر إلى وسيلة لكبح التفكير وتجسيد الصراع الاجتماعي. بمعنى التحول من وسيلة تواصل إلى وسيلة تعويق للتواصل.ولأن كل الأيديولوجيات تتوفر على هذا القدر أو ذاك من التناقض والتدليس والقفز على الحقائق،تقبل الأيديولوجيات مسألة التناقض بين القول والعمل بدعوى أن الواقع يفرض شيئاً من التسامح إزاء أهمية أن يصدق الفعلُ القولَ وينسجم معه. ولهذا ينصح لينين 'بضرورة الانتباه إلى ما يفعله رجل السياسة لا إلى ما يقوله، والأصح أن ننتبه إلى أيادي رجال السياسة بقدر مما ننتبه إلى أفواههم.[٢٦]

يبقى السؤال الخامس حول عدم وجود أسس اجتماعية، من أعراف أو قواعد أخلاقية أو قانونية، تحول دون سوء استعمال اللغة دون إجابة شافية على الرغم من كونه من أهم الأسئلة. فهو السؤال الذي يوجه انتباهنا إلى ضرورة تجاوز حالة القطيعة الفكرية والسياسية، أعني حالة انعدام التواصل شبه التامة التي نعيشها الآن. وإذا كان هناك من يقول بأن الأخلاق هي العربة الأخيرة في قاطرة السياسة، و التواصل في صلب السياسة كما رأينا، فإننا نؤكد بأن عربة الأخلاق يمكن أن تكون العربة الأهم في وضع تاريخي بعينه. فهل نقبل، بدعوى أن هذه هي طبيعة السياسة، بأن نعيش في زنزانات منفردة صنعناها بأنفسنا و لأنفسنا؟ و هل يحقق ذلك أياً من طموحاتنا و مصالحنا؟ أم أننا سنبحث عن السبل والوسائل والمناهج والأفكار والخطط التي يمكن أن تخرجنا مما نحن فيه، وتعيد للغة دورها الفعال والحقيقي في دعم الصيرورة الاجتماعية التي لن تتحقق إلا عبر جعل التفاهم و التواصل الناجع ممكناً؟

٥. في الأسس المقترحة للحل

وما دمنا قد توصلنا إلى أن جذور فشل اللغة لا تكمن في اللغة نفسها و إنما هي في مستعمليها وفي السياقات الاجتماعية والسياسية التي تكتنف ذلك الاستعمال، فإن مهمة التصدي لمنابع الفشل في التواصل اللغوي هي مهمة ليست علمية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فحسب، بل هي مهمة فكرية و اجتماعية على قدر كبير من الجسامة وهي تتطلب وعياً حقيقياً بأهميتها الحاسمة والاستثنائية في الارتقاء بالأداء السياسي و الاجتماعي من جميع المهتمين بالشأن العام ومن المختصين بالحقول المعرفية ذات الصلة. ففي الجانب الفكري، اقترح الفيلسوف الإنجليزي جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤)، أن يتحرى المتحدث النقاط المبدئية الآتية:

١. لا تستعمل كلمة دون أن تعرف أية فكرة ستجعل من تلك الكلمة رمزاً لها.

٢. تثبت من أن أفكارك واضحة، و يتميز بعضها عن بعض، و حاسمة؛ و إذا كانت أفكاراً حول الجواهر، فينبغي أن تكون قابلة للمطابقة مع الأشياء الواقعية.

٣. حيثما أمكن، اتبع الاستعمال الشائع، و بخاصة استعمال هؤلاء الكتاب الذين يبدو خطابهم متضمناً أوضح الأفكار.

٤. حيثما أمكن، صرِّح بمعاني كلماتك(و بخاصة قـُم بتعريفها).

٥. لا تقدم على تغيير المعاني التي تعطيها للكلمات.

وهذا يعني أنه إذا كانت اللغة فعلاً من أفعال الإرادة ، فهي إذن فعل يمكن للفاعل المتكلم أن يغيره قصدياً من أجل هدف تحقيق التفاهم المشترك على أفضل وجه. و أن الأمر، في نهاية المطاف، مرهون بإرادة المتحدث نفسه. [٢٧]

كما اقترح جرايس(١٩١٣-١٩٨٨م)أربعة حدود كبرى أو مبادئ أسماها بالمبادئ الأساسية للمحادثة،أوmaxims of conversation،لضبط دقة الكلام ورفع درجة موضوعيته.وهي المبادئ التي اعتبرها بعض الباحثين أسساً عامة تكون مهاداً لأي استخدام كفءٍ للغة.وهي بمجملها تمثل مبدأ عاماً تعاونياً بين مجموعة المتكلمين.[٢٨]وهذه المبادئ هي:

أولاً. مبدأ النوعية quality الذي يقرر بأن إسهامات المتحدثين ينبغي أن تكون صادقة، و يشدد على أنهم لا يجب أن يتفوهوا بما يعتقدون بكذبه من الأمور أو أن يقولوا ما ليس لديهم عليه دليل مناسب.

ثانياً. مبدأ الكمية quantity الذي يقرر بأن الإسهام في المحادثة يجب أن يكون محتوياً على المعلومة المطلوبة للإيفاء بالغرض الحالي للتبادل الاتصالي. و لا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ينبغي أن يحتوي على ما يتجاوز الإيفاء بذلك الغرض حصراً . وهو ما يذكرنا بضرورة مطابقة المقال لمقتضى الحال الذي هو من شروط بلاغة القول في العربية.

ثالثاً. مبدأ العلاقة أوrelevance الذي يقرر بأن الإسهام يجب أن يكون ذا علاقة وثيقة بالغرض من التبادل الاتصالي. وهو ما يرتبط بوظيفة الاتصال المرجوة والغرض منه.

رابعاً. مبدأ السلوك الكلامي الحميد أو manner الذي يقرر بأن الإسهام يجب أن يتسم بالوضوح و السهولة؛ أي أنه يجب أن يكون منظماً ومختصراً ويتجنب حالة الإبهام obscurity و حالة الغموض ambiguity. ونلاحظ هنا بأن هنالك علاقة واضحة بين المبدأين الأول و الرابع عند جرايس، و القيم الأربع الأولى عند روبول؛ من حيث كونها جميعاً قيماً تقديرية. ويمكن توجيه النقد إلى هذه المبادئ الأربعة في الجملة أو في التفاصيل. فيمكن القول بأن هذه المبادئ تقدم على شكل توصيات لكل متحدث. وهي توصيات ذات جوهر أخلاقي ذاتي مما يحيل المسألة برمتها إلى الذات المتحدثة. فالمبدأ الأول، مبدأ النوعية، هو مبدأ تقديري. أعني بأن المتحدث أو المتحدثون هم من يقررون فيما إذا كان ما يقولونه صادقاً أم كاذباً. وهذا يجعل هذا المبدأ ذا جوهر ذاتي مما يقلل من أهميته وفاعليته في رفع درجة موضوعية الخطاب الحواري حتى يخدم مسألة التفاهم. أما المبدأ الثاني، مبدأ النوعية، فإنه يفترض وجود اتفاق مسبق أو معيار معتمد من جميع المتحدثين يمكنهم من تقرير ما يناسب مقتضى الحال. والحال أن مثل هذا المعيار غير متيسر أو هو ليس موضع قبول أو اتفاق عامين بين جميع المتحدثين. أما المبدأ الثالث، مبدأ العلاقة، فإن المتحدث هو أيضاً من يقرر ما يراه ذا صلة بموضوع المحادثة. وقد درس أحد الباحثين محادثة جرت بين هاملت وبولونيوس، والد أوفيليا في المسرحية المشهورة،فأظهر أنه يمكن أن يفسر كلام هاملت على أنه جواب ذو صلة بأسئلة بولونيوس،أو أنه نوع من التهرب من الأسئلة التي يطرحها بولونيوس.[٢٩]وهذا يعني أن من الصعب التمييز بين ما له صلة وما ليس له صلة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بموضوع المحادثة. أما المبدأ الرابع،وهو مبدأ السلوك الكلامي الحميد، فهو أيضاً ليس سوى مجموعة وصايا بالسهولة والوضوح وتجنب الإبهام و الغموض. وواقع الحال أن السهولة والوضوح هما أمران لا يخلوان من جانب موضوعي يتعلق بالسياق، وجانب ذاتي يتعلق بقدرة القائل على الإفصاح وقدرة المستمع على الفهم لأن المعنى الذي قصده المتحدث هو غير مطابق بالضرورة للمعنى الذي فهمه المستمع.(٣٠)فما يقدم في محاضرة أكاديمية من كلام قد يكون سهلاً بالنسبة لمتخصصين من المتابعينً، و قد يعدّ غاية في الصعوبة بالنسبة لغير المتخصصين أو حتى بالنسبة للمتلقين من ذوي الكفاءة الأكاديمية الأدنى. وقد يفهم على صور مختلفة تماماً. و قديماً قال أحدهم "أوصيك بالدقة لا بالوضوح".أما الإبهام والغموض اللذين يوصي المتحدثون بتجنبهما فإنهما من الأمور الخلافية العصية على التعريف فضلاً كونهما أمرين تقديريين.وهنالك حقيقة تاريخية مهمة بصدد المبادئ التي اقترحها لوك وجرايس وروبول هو أنها لم تحل دون سوء استخدام اللغة أو تقلل من سوء التفاهم على الرغم من مرور مدة زمنية طويلة على طرحها علمياً والتبشير على المستوى الأكاديمي.

إن المشكلة الأساسية التي حاولنا أن نلقي عليها شيئاً من الضوء في هذه المقالة ما زالت تتسم بالأهمية الاستثنائية النابعة من كون أن كثيراً من مصادر الصراع والنزاعات والحروب بين البشر هي نتيجة فعلية لسوء استخدام اللغة والفشل في التفاهم والتواصل. وهذا يجعل من مهمة تحسين قدرة البشر على استخدام اللغة بما يؤدي إلى تعزيز سبل التفاهم بين بعضهم بعضاً مهمة مجتمعية تتطلب جهداً واسعاً ومخلصاً تشترك فيه مؤسسات الدولة كافة، والقوى والمنظمات الاجتماعية الفاعلة والأحزاب السياسية فضلاً عن المؤسسات العلمية والأكاديمية والبحثية ومنظمات المجتمع المدني و وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمفكرين المستقلين. و لن يكون ذلك دون خطط واضحة تعتمد برامج وأسساً موضوعية تستطيع في نهاية المطاف أن تجعل اللغة ممثلة بالخطاب السياسي أكثر التزاماً بهدفها الأساس الذي يتجاوز الاكتفاء بمجرد التعبير عن القناعات الفكرية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والأيديولوجية والدفاع عنها حقاً أو باطلاً إلى غرض آخر أسمى وأهم ألا وهو إرساء التواصل بين المختلفين وتعزيز سبل التفاهم بين الناس. ولعل من المناسب أن نقول أن تفعيل الوعي باللغة ودورها الخطير في شتى مراحل التعليم، وتطوير أساليب الحوار والحجاج الفكري وأسسهما الأخلاقية والمعرفية، وضمان حرية القول والتعبير هي من المبادئ الأساسية في هذا الصدد. ولأن مثل هذه المهمة خطيرة وآنية لا تتحمل التأخير وذات جوهر ثقافي وحركي وعلمي فعال، فلا مندوحة من أن يشرع بها المجتمع كله. وهذا يجعل منها مهمة سياسية وأخلاقية و حضارية. أليس كذلك؟

الهوامش و الإشارات

١. أبو الفتح عثمان بن جني، " الخصائص" ج١. تحقيق محمد على النجار. عالم الكتب. بيروت. دون تاريخ. ص ٣٣.

٢. فحصنا تسعاً و عشرين كتاباً من أمهات كتب النحو العربي بوساطة الحاسوب، فوجدنا أنها تضمنت كلمة اللغة ٣٤٧ مرة. و في الجملة، و باستثناء ما أوردناه من تعريف لابن جني، و لم يورد كاتبو هذه الكتب تعريفات للغة أو تحديد ماهيتها.

٣. أنظر:

Hartmann, R. R. K, and F. C. Stork (1973) Dictionary of Language and Linguistics. Applied Science Publishers LTD. London. (pp 123- 124).

٤. أنظر: Benviniste, E. (1966) Problémes de Linguistique Générale.Gallimard. Paris.(pp28 – 29).

٥. لمقارنة ترجمة المصطلحات langue, langage, parole، أنظر:

د. عبد السلام المسدي (١٩٨٤) قاموس اللسانيات. الدار العربية للكتاب. تونس وطرابلس الغرب. الصفحات ١٩٦ – ٢٠٨.

ب. د. مبارك مبارك (١٩٩٥) معجم المصطلحات الألسنية. الدار اللبنانية للكتاب، بيروت. الصفحة ١٦٢.

٦. ياكوبسن، رومان.(١٩٧٨) " وظائف اللغة" (ص ٥١- ٥٢) ضمن كتاب اللغة . و هو الحلقة الخامسة من دفاتر فلسفية الصادرة في العام ١٩٩٤. إعداد و ترجمة محمد سبيلا و عبد السلام بنعبدالعالي. دار توبقال للنشر. الدار البيضاء . المغرب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٧. أنظر:

Reboul,O.(1980)" Langage et idiologie" in PUF (pp 46 – 51).

٨. مونان، جورج. (١٩٨٠) " اللغة و التعبير" في دورية الفيلسوف. نشر دار فايار. باريس. (الصفحات ١٣٥ – ١٤٢).

٩. بوس، جليبر (١٩٩٤) ***مدخل إلى الفلسفة*** ترجمة د. رجب بو دبوس. الدار الجماهيرية. مصراتة، ليبيا. المقدمة.

10. روجيي ل. (١٩٧٣) ***الميتافيزيقا و اللغة***(ص ٧٩-٨٣) ضمن كتاب **اللغة** . و هو الحلقة الخامسة من دفاتر فلسفية الصادرة في العام ١٩٩٤. إعداد و ترجمة محمد سبيلا و عبد السلام بنعبدالعالي. دار توبقال للنشر. الدار البيضاء . المغرب.

١١. **أنظر**: High D.M.(1967) Language, Person and Belief Oxford University Press. New York.(pp. 6-7) 12 الدكتور.. محمد مهران رشوان (١٩٩٨) دراسات في فلسفة اللغة . دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع. القاهرة. (ص ١١٤).

13. باومر، ل. فرانكلين(١٩٨٩) ***الفكر الأوروبي الحديث: الاتصال و التغير في الأفكار من ١٦٠٠-١٩٥٠. الجزء الرابع.*** ترجمة د. أحمد حمدي محمود.(ص١٠٧) الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة.

١٤. هابرماس، يورغن(١٩٩٥) ***الفلسفة الألمانية و التصوف اليهودي***. ترجمة د. نظير جاهل. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء- بيروت.

١٥.أرنست كاسيرر ***اللغة والمنطق***(٦٦-٦٧).ضمن كتاب **اللغة** المذكور في الهامش(٢)أعلاه.

١٦. أنظر:هاريس،روي (١٩٩٠) ***حول حرية الكلام*** . الصفحات ١٥٣-١٦١ في كتاب:

Joseph, John E. and Taylor, Talbot J.,(editors) (1990) Ideologies of Language.(pp51-78) Routledge .London.

١٧.لودفيج فتجنشتين ***رسالة منطقية فلسفية***(٧٦-٧٧).ضمن كتاب **اللغة** الذكور في٢ أعلاه.

١٨. يمكن الرجوع إلى نص فرضية سابير- ورف في مراجع متعددة. وقد أخذنا النص من كتاب:

Crystal, David(1997) A Dictionary of Linguistics and Phonetics. Blackwell Publishers. London. (4th edition)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١٩.ميشال سارتو، ***الاختلاف و حفريات الخطاب: النص المركز و الهوامش.*** ترجمة الزين محمد شوقي. (ص ٧٩-٨٨) من مجلة كتابات معاصرة العدد٣٣ المجلد التاسع ١٩٩٨. بيروت

٢٠. المصدر في ١٣ أعلاه. الصفحات ٦-٨.

٢١. هاريس، روي: ***حول حرية الكلام.*** مصدر سابق. الصفحة ١٥٣.

٢٢.الدراسة هي ' أدلجة سوسور: قراءتا بلومفيلد و تشومسكي لكتاب محاضرات في اللسانيات العامة' للباحث جون إ. جوزيف. الصفحات ٥١- ٧٨. و قد انتهينا من ترجمة الكتاب كله.ً و هو في طريقها للنشر الآن

٢٣. لبيب، الطاهر: ***سوسيولوجية الثقافة.*** دار ابن رشد، عمان. ١٩٨٦.

٢٤. سبيلا، محمد، ***الأيديويوجيا: نحو نظرة تكاملية.*** (ص ١٢١) المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٢. وأنظر كذلك محمد عابد الجابري: ***العقل السياسي العربي.*** المركز الثقافي العربي، الرباط. ١٩٩٣.

٢٥. المصدر في ١٤ أعلاه. ص ١٤٦.

٢٦. المصدر في ١٤ أعلاه. ص ١٤٦.

٢٧. نقلاً عن " من الذي سيكون سيداً: تأسيس السلطة العلمية في اللسانيات" لتالبوت جَي. تايلور.ترجمة باقر جاسم محمد.منشور في موقع الجمعية الدولية للمترجمين العرب.

٢٨. أنظر مادة maxims of conversation في المصادر الآتية:

Crystal, David(1997) A Dictionary of Linguistics and Phonology. 4th edition. Blackwell Publishers. Oxford.(p236).

Gramley, Stephan and Pätzold, Kurt-Michael (1992) A Survey of Modern English. Routledge. London. (p 212).

29. أنظر:

Fromkin, Victoria and Robert Rodman,(1993) An Introduction to Language, 4th ed. Harcourt Brace Publishers, New York.(pp.157-158).

٣٠. أنظر: Verschueren, Jef (1999) Understanding Pragmatics Oxford University Press, New York. (p 47).

كشف المصادر في اللغة العربية:

١. بن جني، أبو الفتح عثمان " **الخصائص**" ج١. تحقيق محمد على النجار. عالم الكتب. بيروت. دون تاريخ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢. باومر، ل. فرانكلين(١٩٨٩) ***الفكر الأوروبي الحديث: الاتصال و التغير في الأفكار من ١٦٠٠ - ١٩٥٠. الجزء الرابع***. ترجمة د. أحمد حمدي محمود. الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة.

٣. بوس، جليبر (١٩٩٤) ***مدخل إلى الفلسفة*** ترجمة د. رجب بو دبوس. الدار الجماهيرية. مصراتة، ليبيا.

٤. تايلور، تالبوت، جَي.(١٩٨٩) " من الذي سيكون سيدا ً: تأسيس السلطة العلمية في اللسانيات". ترجمة باقر جاسم محمد. منشور في موقع الجمعية الدولية للمترجمين العرب .

٥. جوزيف، جون إي (١٩٨٩) ***أدلجة سوسور: قراءتا بلومفيلد و تشومسكي لكتاب محاضرات في اللسانيات العامة***. ترجمة باقر جاسم محمد. منشور في موقع جمعية المترجمين و اللغويين العرب.

٦. رشوان، محمد مهران (١٩٩٨) **دراسات في فلسفة اللغة** . دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع. القاهرة.

٧. روجيي ل. (١٩٧٣) ***الميتافيزيقا و اللغة*** ضمن كتاب **اللغة** . و هو الحلقة الخامسة من **دفاتر فلسفية** الصادرة في العام ١٩٩٤. إعداد و ترجمة محمد سبيلا و عبد السلام بنعبدالعالي. دار توبقال للنشر. الدار البيضاء . المغرب.

٨. سارتو، ميشال، ***الاختلاف و حفريات الخطاب: النص المركز و الهوامش***. ترجمة الزين محمد شوقي. مجلة **كتابات معاصرة** العدد٣٣ المجلد التاسع ١٩٩٨. بيروت.

٩. سبيلا، محمد: ***الأيديويوجيا: نحو نظرة تكاملية***. المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٢. و أنظر كذلك محمد عابد الجابري: ***العقل السياسي العربي***. المركز الثقافي العربي، الرباط. ١٩٩٣.د

١٠. عبد السلام المسدي (١٩٨٤) قاموس اللسانيات. الدار العربية للكتاب. تونس و طرابلس الغرب.

١١. فتجنشتين، لودفيك: ***رسالة منطقية فلسفية***. ضمن كتاب **اللغة**. و هو الحلقة الخامسة من **دفاتر فلسفية** الصادرة في العام ١٩٩٤. إعداد و ترجمة محمد سبيلا و عبد السلام بنعبدالعالي. دار توبقال للنشر. الدار البيضاء . المغرب.

١٢. لبيب، الطاهر: ***سوسيولوجية الثقافة***. دار ابن رشد، عمان. ١٩٨٦.

١٣. مبارك مبارك(١٩٩٥) معجم المصطلحات الألسنية. الدار اللبنانية للكتاب، بيروت.

١٤.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١٥. مونان، جورج.(١٩٨٠)" اللغة والتعبير" في دورية الفيلسوف. نشر دار فايار. باريس.

١٦. هابرماس، يورغن(١٩٩٥) ***الفلسفة الألمانية و التصوف اليهودي***. ترجمة د. نظير جاهل. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء- بيروت.

كشف المصادر باللغة الإنجليزية:

1. Crystal, David(1997) A Dictionary of Linguistics and Phonology. 4th edition. Blackwell Publishers. Oxford.(p236).

2. Fromkin, Victoria and Robert Rodman,(1993) An Introduction to Language, 4th ed. Harcourt Brace Publishers, New York.

3. Harris, Roy (1989) *On the liberty of Speech. In* Joseph, John E. and Taylor, Talbot J.,(editors) (1990) Ideologies of Language.(pp51-78) Routledge .London.

4. Hartmann, R. R. K, and F. C. Stork (1973) Dictionary of Language and Linguistics. Applied Science Publishers LTD. London.

5. High D.M.(1967) Language, Person and Belief .Oxford University Press. New York.

6. Gramley, Stephan and Pätzold, Kurt-Michael (1992) A Survey of Modern English. Routledge. . London

7. Verschueren, Jef (1999) Understanding Pragmatics Oxford University Press, New York.

كشف المصادر باللغة الفرنسية:

1. Benviniste, E. (1966) Problémes de Linguistique Générale.Gallimard. Paris.

2. Reboul,O.(1980)" Langage et idiologie" in PUF.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com